

إشكالية القراءة في النص القرآني .

هوارى حمادي،

جامعة معسكر.

إن الحديث عن النص القرآني في الثقافة العربية كان ولا يزال من القضايا المحورية بالنسبة إليها ولل فكر الإسلامي ككل، فهو من المسائل المصحوبة بالكثير من الحساسية والخطورة ليس في الفترة الكلاسيكية فحسب، أين حدثت الكثير من الخلافات والفتن حول فهمه وصلت إلى حد التكفير وسفك الدماء في الكثير من الأحيان، بل يمكن أن نقول دون مبالغة أن المسألة ازدادت خطورة في الفترة الراهنة أين تبلورت الكثير من الصراعات بين تيارات متنوعة الكثير منها إن لم نقل كلها تريد احتكار الفهم الصحيح للنص، ولأسيما بعد تغير الأوضاع السياسية و الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات الإسلامية وللعالم ككل، والتي ترتب عنه صعوبة الوصول إلى فهم محدد لمعاني السور القرآنية من شأنه مواكبة المستجدات والحفاظ على خصوصيات هذا النص الوقت نفسه.

ولكن المشكلة لا تتعلق بالنص القرآني في ذاته بل بكيفية القراءة والفهم لمضامينه، حيث تعددت آليات التعامل معه عبر العصور، ولم تقتصر على التفسير والتأويل كما تجسد في الفكر الكلاسيكي، بل تعدت ذلك إلى الدعوة إلى اعتماد آليات جديدة للفهم تستمد من التطور العلمي في ميادين العلوم بأنواعها المختلفة كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللسانيات السيميائيات وغيرها، هذا التعدد هو ما ترتب عنها تعدد في الخطابات القرآنية منذ القديم وإلى يومنا هذا، كل واحد منها ينفرد بخصوصيات معينة في التعامل مع النص القرآني، وكل منها يدعي أنه يسلك المنهج الأنسب لفهمه، فتاريخ الفكر الإسلامي يبين لنا اختلاف المتكلمين بفرقهم المختلفة في أنماط القراءة لنصوصه، وهو ما سيستمر في الفكر اللاحق أين تتعدد كتب التفسير بين الفقهاء ذاتهم رغم اشتراكهم في الكثير من الآليات كوسائل وأسس لفهم القرآن كعلوم اللغة والنحو وعلوم الدين الأخرى التي تبلورت في كتابي "البرهان" و"الإنتقان" على وجه الخصوص، وتزداد حدة الاختلاف على مستوى الفلاسفة الذين افتحموا لجة البحر القرآني كابن رشد وابن عربي وغيرهم من الذين انفردوا بقراءات للقرآن تطبعها الكثير من الخصوصية ما تزال في حاجة إلى البحث و تعتبر من المواضيع الأكثر فعالية اليوم، كما يبدي الفكر المعاصر اهتماما واضحا بالنص القرآني عند المشتغلين به كالجابري وأركون وأبو زيد وغيرهم من الذين يطمحون إلى قراءات جديدة للقرآن، من شأنها تجديد الفهم لنصوصه حسب الاستفادة من منجزات العلوم في شتى الميادين ومواكبة المستجدات، هذه الاعتبارات هي ما يمكن أن تطرح وتفهم في ظل ما يعرف بإشكالية القراءة،

ولاسيما في نص كالقرآن الذي كان ولا يزال محفوظا بالمخاطر، ويطلب الكثير من المغامرة للحديث عنه.

هذه المغامرة من دون شك كانت ولا تزال مطلبا ملحا لكونها تتعلق بصيرورة ومصير أمة بأكملها، وهي الأمة الإسلامية بل وبمصير العالم انطلاقا من عالمية الرسالة المحمدية، ولاسيما في الفترة الراهنة التي تعكس نوعا من الاهتمام بالحقائق والأسرار المتضمنة في القرآن، والتي لا يمكن أن تدرك من بقايا الاستشراق ولا تفاسير الفقهاء أو المتخصصين في الشريعة، لأن الواقع والتاريخ يثبت عدم جدواهما في تأسيس رؤية شاملة تنطبق على القرآن الذي يتميز عن غيره بأنه أنزل للناس كافة وليس لأمة بعينها، ومن دون شك أن هناك مهمة أساسية أرسى دعائمها الرسول صلى الله عليه وسلم ظل السعي نحو تحقيقها صعبا تحيط به الكثير من المخاطر، وهي تبليغ القرآن للناس كافة، وهي المهمة التي لا تتحقق بالفتوحات فقط ولا لغة القوة التي ما فتئ البعض يجعل منها ملازمة للدين الإسلامي، بل تتحقق بقراءة مناسبة وفعالة من شأنها خدمة الإنسانية ككل وتبليغ الحقيقة المطهرة من أدران الايديولوجيا، والتعصب الديني والعنصرية، والنظرة الدونية للآخر التي كثيرا ما جعلته ينفر من القرآن ويهاجمه، وهنا المشكل المطروح ما مدى إمكانية تحقيق قراءة مناسبة لعالمية النص القرآني؟

مما لا شك أنه من الصعب تحديد الإجابة على هذا السؤال، فهو لا يزال من المشاريع الكبرى التي يحلم بتحقيقها الفلاسفة، وهنا من الممكن أن يجيبنا البعض بأن ما توصل إليه علماء الفقه والأصول من تفاسير وطرائق يعتبر رسالة للناس كافة وقراءة نهائية وشاملة لمعاني السور والآيات والتي عبرت عن مضامين القرآن في مجالي العقيدة والشريعة لذلك فهي تحتاج إلى التطبيق وليس إلى النقاش، وهنا لنا أن نطرح سؤالا آخر لماذا لم تطبق في الواقع؟، الإجابة تكون لأنها لم تؤثر وتنفذ إلى الفعلية، وذلك لأنها لم تفهم فهما صحيحا، وما زالت النصوص القرآنية في حاجة إلى قراءة فعالة وهادفة ومثمرة تعتمد على آليات فلسفية كالتأمل والتساؤل والتحليل لمشاكل الإنسان والكون ككل تحقق الأبعاد الحقيقية للرسالة المحمدية.

فتاريخ الفكر الإسلامي يبين هيمنة قراءات محددة للنص القرآني كانت ولا تزال تصنع علاقته بالواقع رغم أنها مجرد مجهودات بشرية أكل عليها الدهر، لا تحقق في الكثير من الحالات علاقة النص بالتغيرات الحاصلة فيه، بالرغم من ذلك لا تزال عند البعض هي الكفيلة بفهمه والوصي الوحيد عن معانيه، ومخالفتها هي مخالفة للنص الأصلي، هنا قد يقول لنا البعض أننا لا نستطيع الفصل بين النص القرآني والقراءات، كما أنه جاء مجملا وليس مفصلا، ولا يمكن فهمه وممارسته عبر التاريخ والواقع إلا بقراءات العلماء له باعتبارهم ورثة الأنبياء أو هم الأوصياء عنه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، نحن لا نخالف هذا بل نسعى إليه ونطمح إلى تجسيده، ولكن بعيدا عن سياج الدوغمائية، ودعوى امتلاك الحقيقة، وهالة

القداسة، وفكرة المطلق، كاعتبارات أضيفت على نصوص بشرية ولم تضاف على القرآن في ذاته كما يعتقد البعض، وذلك لأن الاطلاع على الحالة السابقة والراهنة للفكر الإسلامي يبين لنا أن مختلف الخطابات تحتكر قراءة معينة للنص القرآني، وتطلق من الفكرة المطابقة بينها وبين معاني السور والآيات، لكي تدافع عن أفكار بشرية في شكلها ومضمونها لا يمكن أن تتطبق مع تنزيل إلهي كالقرآن، والقول بالانطباق هو عينه المساس بالقداسة التي يتحجج بها هؤلاء في التعامل مع النص، كونها تأسر فهمه في فهم بشري محدد لا يمكن أن يضاهيه أو ينقده تغير الوقائع وتطور العلوم، ويبقى أنسب لعصره وعصرنا في نظرهم فهل هذا يتماشى مع منطق التغير في الوقائع والتطور في التاريخ وصلاحيية القرآن لكل زمان ومكان؟

فخطورة الوضع في بلاد المسلمين على وجه الخصوص وعدم استقرار أوضاعهم في الميادين المختلفة وعبر العصور يمت بالكثير من الصلة مع كيفية قراءة النص القرآني التي كانت الهاجس المركزي للثقافة الإسلامية الكلاسيكية، و أصبحت اليوم من ناحية أخرى محور الكثير من الدراسات النقدية للتراث، ولا سيما في الفكر العربي المعاصر الذي مازال على غرار الفكر الإسلامي السابق له يتحرك حول النص باعتباره المصدر الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية، وليس من قبيل التبسيط أن نصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة النص، بمعنى أنها حضارة أنبتت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز النص فيه كما قال أبو زيد.

فقد كان وما زال النص القرآني جوهرًا ومصدرًا لمختلف الإشكاليات التي يطرحها المفكرون المسلمون على وجه الخصوص، ولكن طرح هذه الإشكاليات يرتبط بدوره بإشكالية أخرى وهي القراءة المناسبة لهذا الجزء من التراث التي أصبحت هاجسًا لا يمكن الاستهانة بخطورته ليس على الميدان الفكري فحسب، بل تظهر انعكاسات غياب الفهم الحقيقي لنصوصه - الذي لا يزال مفقودًا - في جميع الميادين بما فيها السياسية والاجتماعية والثقافية.

هذه الأهمية التي تكتسبها مسألة قراءة النص القرآني دفعتنا إلى محاولة طرحها في هذا المقام، وذلك بالبحث عن أسسها ومستوياتها، باعتماد تحليل لنماذج من القراءات، لعلنا نكتشف إمكانية تحقيق طموح مشروع، وهو مدى بلوغ قراءة عالمية للنص القرآني من شأنها أن تزيل الخلافات وتعبروا بالقليل عن حقيقته التي لا تزال مجهولة.

طبيعة النص القرآني: "طبيعة النظرة إلى القرآن تصنع نمط القراءة المعتمدة في فهم نصوصه"

المنطلق الأول للحديث عن إشكالية قراءة النص القرآني هو الحديث عن طبيعته، فتاريخ الفكر الإسلامي من شأنه أن يبين لنا تعريفات وتصورات متعددة للقرآن انتهت إلى تعدد المناهج في دراسته وفهمه حسب تعدد النظرات واختلافها حول

حقيقته ومميزاته، لأن النظرة التي كانت موجودة حوله في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم متلقية الأول تختلف من دون شك عن نظرة التابعين له انطلاقاً من تبلور الفرق الكلامية الأولى والمذاهب الفقهية الأربعة وإلى يومنا هذا، بل هناك نظرات مختلفة له في العصر الواحد تبلورت منذ صدر الإسلام، حين اختلفت نظرة المشركين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى كاليهودية والمسيحية إليه عن نظرة المسلمين، واستمر هذا الاختلاف في الفترات اللاحقة بين الديانات والفرق حسب التصورات التي تحملها كل واحدة منه حول حقيقته، والتي تكون هي المحدد لآليات فهمه وكيفية تطبيقها على نصوصه، فإدراك تطور هذه النظرة عبر التاريخ من شأنه أن يجعلنا ندرك سر الاختلاف في فهمه و معرفة أسبابه سواء أكانت إيديولوجية أو موضوعية، لأنها تجعلنا ندرك الظروف الذي صنعتها، والتي كثيراً ما كانت مستقلة عنه تتخذ طابعاً سياسياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً أضفي على هذا النص في ثوب إلهي يغطي باطناً بشرياً بغية التأثير وبلوغ مرام دنيوية وليس دينية في الكثير من الحالات.

فمما لاشك فيه أن مسألة إثارة حقيقة النص القرآني تسبق كل حديث عن القراءة المناسب لفهمه، ولا يمكن إلقاء اللوم على المناهج واعتبارها مجرد آليات لفهم النصوص البشرية لا تناسب النص القرآني أو هي من إنتاج الغرب لا يمكن أن تكون كفيلة بفهم نص عربي كالقرآن، بل يجب البحث في حقيقته أولاً وقبل كل شيء وفق إشكالية جوهرية تطرح بطريقة جيل دولوز عندما تساءل: ما هي الفلسفة؟ وتجعلنا نقول ما هو القرآن؟ وهل يمكن اعتبار النص القرآني نصاً عادياً بإمكانه أن يفهم بوسائل بشرية تطبق على النصوص الأخرى؟

هذه الإشكالية تكتسي أهمية جوهرية في فهم كل المسائل المطروحة في مجال قراءة النص القرآني ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لأنها أساس فهم الآليات المتبعة في إدراك مدلولات النص القرآني، والمحدد للأهداف التي يتوخى الوصول إليها الباحث في إطاره مهما كانت تيولوجية دينية أو سياسية إيديولوجية أو ثقافية اجتماعية أو غير ذلك، بل وحتى الغايات العلمية الموضوعية التي تتحجج بها الكثير من الخطابات في انتهاج آليات معينة في التعامل مع القرآن تدرك بسهولة إذا أدركنا تصوراتهم حول طبيعة الخطاب القرآني كمسألة أولية وأساسية من شأنها أن تحدد مبادئهم بل ومصير النمط المحدد عندهم في قراءة النصوص القرآنية.

وتفهم نظرة المشتغلين بالقرآن على مستويين، إما من النظر إليه على أنه نص إلهي أو وحي سماوي يحمل صفات القداسة والتعالى ويعبر عن قطيعة تامة بينه وبين النصوص البشرية لا يمكن أن يقرأ كما تقرأ، وإما من النظر إليه على أنه نص كباقي النصوص معبر عنه بلغة بشرية ويعبر عن أفكار البشر ويمثل تعبيراً عن الثقافة الإنسانية ويمكن أن يفهم في إطارها، وسط هذا التعارض يظهر الموقف الفلسفي الذي لا يرتبط بالعنصر الثاني فقط كما يبدو عند الكثير من الفلاسفة

المشتغلين بالقرآنيات لأن مهمته القصوى الآن هي البحث في تعريف جامع مانع للقرآن من شأنه أن يجمع كل خصائصه وصفاته ويمنع دخول تلك الصفات الخارجة عن إطاره، في هذا الوقت فقط يمكن الحديث عن القراءة الأمل لفهمه والمنهج الكفيل بدراسته والذي لا يحقق إلا بالاتفاق على حقيقته وخصائصه في أي مدى يتحقق هذا الاتفاق؟

لا شك أنه من الصعب الوصول إلى اتفاق حول ماهية النص القرآني، ولكن تحليل المستويات المختلفة التي يتحرك فيها النص القرآني من شأنه أن يزيل الكثير من الغموض حول المسألة، ونحن لا نريد الخوض في جميع المفاهيم التي ألحقت به بقدر ما نريد أن نحلل ونناقش المفاهيم السائدة، والتي تصنع الثقافة العربية وعلى وجه الخصوص الحياة اليومية للإنسان في جميع ميادينها، لذلك سنبحث في المفهوم من خلال صيرورته الواقعية لأنها هي من تصنع القراءة، ومن يبنى فعالية النص، لأن أهم العوائق التي لا تزال توجه النص القرآني وكل النصوص الدينية هو أنها تقرأ حسب مبادئ التعالي والقداسة التي تجعل القراءة خطراً على النص في ذاته حين تأسره داخل نصوص بشرية دون أن تدري، وخطراً على المجتمع ينبع من إخضاع الواقع لها تعسفاً ونفاقاً، بدل أن تقرأ حسب محايثتها وخضوعها للواقع وحسب فعاليتها في حل مشاكل الإنسان.

وفي هذا الصدد سوف لن نستعرض مجموعة المفاهيم الملحقة بالقرآن الكريم لأننا سنطرحها في العنصر اللاحق، وذلك من أجل إدراك علاقتها بأنماط القراءة التي سادت حول النص بصورة أوضح وحسب مجموعة من الفئات تتعامل مع القرآن بأنماط متميزة من القراءات كل واحدة تسعى إلى احتكار فهمه الصحيح في غالب الأحيان، ومن بينهم العامة، وعلماء الدين، والفلاسفة، ومن دون شك أن هذه الفئات الثلاثة تختلف في كيفية قراءة النص حسب طبيعة التصورات التي تتطرق منها في تأسيس تصوراتها حول هذا النص الذي يصعب تحديد طبيعته، والسعي نحو ذلك إما أن يتحرك داخل أسوار القداسة أو يحطمها، ونحن بهذا الموقف لا نسعى إلى تحديد تصور مثالي له بل نطمح إلى تجاوز هذين الموقفين لحساب الحقيقة حسب تعريف محدد نرى من خلاله أن النص القرآني يمثل نصاً إلهياً يتضمن الحقائق المطلقة التي تتضمن مجموع الحقائق النسبية التي تقع في مستوى إدراك البشر، ونحن بهذا التصور لا نكسر المفهوم التقليدي بل ندعو إلى اكتشاف الحقائق الكبرى الواردة في القرآن على قدر الطاقة البشرية والتي لا تتحقق إلا عن طريق الفلسفة كآلية متميزة تسعى إلى الانتصار إلى الحقيقة قبل كل شيء .

المفهوم يصنع القراءة: " تجديد القراءة وتحقيق فعاليتها يبدأ من الثورة على المفهوم التقليدي للقرآن وتجديد مفهومه"

لا نكون مبالغين إن قلنا أن القراءة التي كانت ولا تسيطر على واقع المجتمعات الإسلامية في مجال التعامل مع النص القرآني هي تلك القراءة التي تتأسس

وتتطلب من تعريفه الشائع والمتداول عند الفقهاء واللغويين العرب، وهو اعتبار القرآن كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نزل منجماً في نيف وعشرين سنة على حسب الحوادث والمناسبات، وأغلبه نزل في مكة وضواحيها (85) سورة، وهذا القسم يسمى المكي، والباقي نزل في المدينة ويسمى المدني، ولكل قسم ميزات لا نجدها في القسم الآخر. ومجموع سوره 114 سورة تتراوح من حيث الحجم، فأطول سورة هي سورة البقرة، وتضم 286 آية. وأقصر سورة هي سورة الكوثر، وتضم ثلاث آيات. ولكل سورة اسم خاص بها، وقد تسمى السورة الواحدة بأكثر من اسم. وعدد آياته 6616 آية.

جاء اسم القرآن من عند الله من أجل مخالفة العرب فيما يسمون كلامهم، فسمي ما أنزل على نبيه قرآناً كما سمي العرب أشعارهم ديواناً. وسمى بعضه سورة كما سمو بعض ديوانهم قصيدة. وسمو بعض السورة آية كما سمو بعض القصيدة بيتاً. وآخر الآية هي الفاصلة كالفافية وهذا جزء من إعجازها.

وقد وردت لفظة القرآن إحدى وسبعين مرة كما وردت له تسميات أخرى تقرب من نيف وخمسين اسماً منها: الكتاب - المبين - الكلام - الفرقان - المبارك - النبأ - العظيم - الوحي - العربي - اليان - الزبور - البشير - العزيز - البلاغ - .وحين جمعه اسموه " المصحف وهي كلمة حبشية.(التونجي م ، : 1993 ص703- 704).

وعندما نعت هذا التعريف بالشائع لا يعني أننا نشكك فيه أو نقلل من قيمته، ولكن هدفنا التنبيه إلى دوره في صياغة تعريف آخر يشكل النظرة السائدة والمهيمنة على الفكر الإسلامي وهو اعتبار القرآن كتاب الله المقدس، يفهم بالبيان وآليات اللغة والنحو ، وفي إطار المأثور ، وحسب الآيات المحكمات فقط، ويرتكز على التسليم والإيمان المباشر المتحرر من الرؤية الفلسفية التأملية القائمة على التحليل والنقد ، هذا التصور المهيمن على المجتمعات الإسلامية هو من يثير نمطا من القراءة تقوم على الفهم السطحي للنصوص في الكثير من الحالات لا يظهر عند الجمهور فقط كما أشرنا سابقا بل نستطيع القول دون مبالغة أنه المنطلق لأغلب الفقهاء والأصوليين في تحديد عملية قراءتها وأساس بناء رؤية حولها تكاد تكون مسجونة داخل جدران القداسة والتعالي بارتكازها على الآليات اللغوية والنحوية وما تسمى بعلوم الدين الكلاسيكية، وقيامها على منهج التفسير بالمأثور على وجه الخصوص، كما يظهر في منهج الطبري صاحب كتاب"جامع البيان في تفسير القرآن" حين يقوم على اعتماد القراءة حسب الروايات الموثوق بها، والمتصلة حلقاتها بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وتابعيهم أولئك الذين استقوا من صاحب الرسالة عليه السلام روح فهمهم للنص القرآني أو سمعوا منه تفسيره مباشرة (إسماعيل، ع، 25) هذا النموذج في قراءة القرآن يعتمد على النقل و يقوم على مبادئ المأثور والسلف والبيان والعناية بالقراءات الأولى ودراسة الروايات والتأكد من

الأسانيد، ويمكن أن نلمس نمطا من القراءة التي تركز مباحث اللغة ورؤى السلف عند ابن كثير الذي اعتنى بتفسير القرآن بالقرآن، وعند السيد قطب في كتابه "الظلال" الذي يأتي فيه المؤلف أولا بظلال في مقدمة السورة، تربط بين أجزائها، وتوضح أهدافها ومقاصدها، ثم يشرع بعد ذلك في التفسير، فيذكر المآثور الصحيح (دريالة، إم 2007: 367)، هذه نماذج من القراءات المشهورة المؤسسة على المفهوم الشائع للقرآن الذي يسعى الكثير من المفكرين المعاصرين إلى تجاوزه.

وهذا المفهوم الذي إن كان يسيطر على واقع الفكر الإسلامي حين يتداول في المساجد وفي الزوايا وفي الخطابات الشعبية والرسمية، فإنه يواجه الكثير من النقد كسبب للركود والجمود في بناء فهم فعال في الواقع من شأنه أن يخرج الفكر الإسلامي من سياج الدوغمائية المؤسسة على أنقاضه، فالיום بسعي كوكبة من المفكرين المعاصرين إلى نقده إدراكا منه للإفرازات المترتبة عنه وإيجاد مفهوم جديد للقرآن تحيط به الكثير من الخطوط الحمراء، فما حقيقة هذا الأخير؟

السعي إلى إيجاد مفهوم جديد للقرآن هو المنطلق لتأسيس قراءة جديدة للنص القرآني تسعى إلى تجاوز قراءة الفقهاء له وفق مناهج البيان والتفسير بأنواعه المختلفة، وقد يبدو إشكالية معاصرة وغير مألوفة ولا يمكن أن يتقبلها الواقع، ولكن تبلورت منذ القديم ومنذ محنة الإمام ابن حنبل حين أثار المعتزلة مسألة خلق القرآن، واعتمدوا على التأويل والمجاز في قراءة نصوصه، هذه المحنة نفهم من خلالها أن القرآن كلام الله مخلوق يعتبر مفهوما جديدا وتمردا على عقيدة السلف التي تنهى عن كل بحث في مسألة تتعلق بطبيعته، و تدعو إلى التسليم بأن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولا وأنزله على رسوله وحيا وصدقه المؤمنون على ذلك حقا وأيقنوا أنه كلام الله تعالى حقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية (شبانة، ح، 2004: 69) هذه المخالفة لأهل السنة ترد عند الفقهاء في رفض هذا المفهوم الذي سيحدد نمطا متميزا من القراءة سنراه فيما بعد، هذه النظرة يشيد بها أركون ويرى أنه ينبغي الاعتراف بأن منهجية المعتزلة كانت تحتوي على إمكانية نظرية كامنة وواعدة (أركون، م. 2005: 11) وذلك لأنه كانت سباقة لتجاوز الواقع الذي يرفض هذا الموقف، ونموذجا لاقتحام عالم الممنوع التفكير فيه، بالسعي نحو إثارة حقيقة النص القرآني في فترة ليست ببعيدة عن نزوله، وندرك عند ابن رشد أن القرآن كتاب الحقائق الكبرى التي تسعى الفلاسفة إلى البحث عنها في أقدم العصور تدرك في أعلى درجاتها بقراءة فلسفية آليتها القياس البرهاني، وهو بدوره سعى إلى تجاوز النظرة المهيمنة في عصره والتي كلفته الكثير من الاضطهاد رغم أنه كان قاضيا وفقهيا وطبيبا ولم يكن فيلسوفا فحسب، كما نكتشف عند ابن عربي القرآن كلغة أنطولوجية تعبر عن كل أسرار الوجود يتوصل إلى فهمها بالذوق والتجربة الصوفية وتقرأ بالتأويل الصوفي، وهي بدورها تلقى الكثير من النقد ولا تزال تسيل

الكثير من الحبر بصفاتها تنتمي إلى مجال غير مألوف وتمثل انتهاكا للمحرم، هذه بعض النماذج التي تجعلنا ندرك أن نمط النظرة التي يحمله القارئ للقرآن تصنع منهجه وطريقته في القراءة، والتي ندرك من خلالها أن القراءة المهيمنة في الواقع يصنعها التعريف الشائع والمتداول في المجتمعات الإسلامية، وهو اعتبار القرآن الكتاب المقدس والمفصل والموضح لكل شيء يجب الإيمان به بدل مناقشته وفهمه، هذه النظرة بقدر ما هي واقعية فهي أبعد ما تكون عن الواقع مادامت لا تسعى إلى بناء فهم أكثر فعالية من شأنه أن يواكب مستجدات الواقع ويتحرر من زنانة القداسة، والواقعية الساذجة.

هذا الفهم هو ما تسعى إليه الدراسات القرآنية في الفترة المعاصرة، إذ ندرك أن النظرة المتميزة للنص القرآني تدرك عند الفلاسفة على وجه الخصوص الذين يرفضون التمسك بالمفهوم التقليدي للقرآن القائم على كلمات المصحف والتفديس والإعجاز، هذه الكلمات كانت ولا تزال تصنع قراءة الفقهاء والمتخصصين في الشريعة الإسلامية، وينحون نحو مفاهيم أخرى تسعى إلى التخلص من هذه النظرة التبجيلية التقديسية وتتقدها لحساب نظرة جديدة تعتبر ظاهرة الوحي -القرآن- لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع أو تمثل وثبا عليه وتجاوزا لقوانينه، بل كانت جزءا من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضيعها وتصوراتها (أبو زيد، ح ن، 2005: 32) هذه النظرة تعتبر القرآن جزءا لا يتجزأ من الثقافة العربية الإسلامية يمكن أن يقرأ داخلها وفي إطارها ومن خلال علاقته بالنصوص الأخرى كالشعر العربي الذي كان منطلقا للقراءة عند البعض من أمثال طه حسين و أبو زيد، في نفس هذا الاتجاه ينتقد أركون التصور الكلاسيكي للقرآن ويرى أنه يعبر عن كلمة مشحونة إلى أقصى حد بالعمل اللاهوتي والممارسة الطقسية الشعائرية الإسلامية المستمرة منذ مئات السنين، إلى درجة أنه يصعب استخدامها كما هي (أركون، م، 1999: 29) بمعنى أنها كانت ولا تزال تسيج عقول المسلمين بأسوار القداسة التي تؤسس لمفهوم مغلق، وهو اعتبار القرآن كتابا ومصحفا مقدسا متعاليا يجب الإيمان به فقط دون أي تساؤل أو أشكالية لمفهومه التي تحرم على الإطلاق، هذا ما يجب تجاوزه لحساب اعتبار القرآن نصا من جملة نصوص أخرى تحتوي على نفس مستوى التعقيد والمعاني الفوارة الغزيرة كالنوراة، والأنجيل، والنصوص المؤسسة للبوذية أو الهندوسية (أركون، م، 1999: 37) وبهذا يمكن أن نقرأه بنفس الآليات المطبقة على النصوص الأخرى، وهي المشروع الطموح لأركون الذي يرى وجوب التخلص من هالة القداسة، وتراكمات الفكر الكلاسيكي، والشحن الإيديولوجي لمفهوم القرآن كسبل ومنطلقات كبرى لقراءة فعالة ومثمرة من شأنها حل الكثير من إشكاليات الفكر الإسلامي لعل أهمها معضلة الخلاف بين السنة والشيعة.

هذه بعض المحاولات الجريئة في أشكالية المفهوم المتعلق بالقرآن، أشرنا إلى نماذج منها في الفكر الكلاسيكي والمعاصر، سميناهما بالجريئة لأنها هي الوحيدة

التي من شأنها أن تكشف الكثير من الألاعيب والإكراهات التي خضع لها هذا النص وهي النماذج الجوهرية التي تكشف استغلاله غير المشروع في الكثير من الحالات، كما أن التاريخ والواقع يبينان أن أصحابها اقتحموا الخطوط الحمراء، ولم يستسلموا لضغوط الخطابات الرسمية والشعبية، و استطاعوا التحرر من قناع الايديولوجيا إلى حد ما لأنه لا يوجد خطاب بريء، وأهم ما نتوصل إليه من خلال القراءة لأفكارهم وهو عدم وجود قراءة واحدة للنص من شأنها أن تحتكر فهمه الصحيح، بل إن كل قراءة تتبع مفهوما معينا تنطلق منه يحدد جملة الآليات المنتهجة في التعامل مع النصوص القرآنية.

آليات القراءة: " لا يمكن إيجاد آليات مناسبة لقراءة القرآن إلا إذا كانت منزهة عن العواطف والعادات والأيديولوجيات"

بغض النظر عن آليات القراءة الساذجة التي يقدمها العامة للقرآن والتي تقوم على الحس والمنفعة والعاطفة والعادات والتقاليد، فإن الحديث عن الآليات المعتمدة في شتى القراءات المقدمة للنص القرآني في الفكر الإسلامي، يمكن أن نفهمها على مستويين، الأول وفق مسارها التاريخي حين نجد آليات كلاسيكية تقوم على علوم الدين في غالب الحالات، وأخرى معاصرة تقوم على منجزات العلوم الإنسانية والاجتماعية في الفترة الراهنة، والثاني وفق تباين القراءة بين علماء الدين والفلاسفة حيث نجد اختلاف الفقهاء والأصوليين عن المتكلمين والمتصوفة والفلاسفة في التعامل مع النص القرآني، ونفضل أن ندرسها على المستوى الثاني لأن التقسيم التاريخي في المستوى الأول يفتقد إلى الدقة والموضوعية باعتبار أننا لا نستطيع إنكار وجود جذور أولى للآليات المعاصرة في الفهم الكلاسيكي للقرآن في الرؤية التي يقدمها الفلاسفة، ولا إنكار وجود منطلقات فقهية وأصولية كلاسيكية في خطاب علماء الدين اليوم.

فعلماء الدين من فقهاء وأصوليين ينطلقون من التصور الخاص الذي يحملونه حول القرآن، و هو اعتباره وحيا إلهيا تقوم قراءته على تفسير الآيات المحكمات واستخراج الأحكام الشرعية منها كحكم التحريم والوجوب، وتقوم في مقابل ذلك عن النهي عن قراءة المتشابه من آيات تتعلق بصفات الله وغيرها، وتتميز عن قراءات الفلاسفة بأنها لا تختلف كثيرا في مراحلها المختلفة، وتقوم على جملة من الأسس تبلورت منذ الفترة الكلاسيكية واستمرت في الفترة المعاصرة، وذلك لأن علماء الدين من فقهاء وأصوليين لا يزالون يعتمدون عليها بصدد قراءتهم للنصوص القرآنية.

تنطلق هذه الأسس من المعرفة بعلم القرآن التي ترتبط بلفظ مركب من كلمتين هما، أولا: علوم وهي جمع علم ويعني المعرفة العلمية المنظمة والدقيقة بمجموع المسائل المتعلقة بموضوع ما، وثانيا هي ما نضيفها إليه القرآن الذي عرفناه سابقا، وما يهمنا هنا تحديد حقيقة علومه وهي المعرفة بمجموع المسائل والمنطلقات المتعلقة بقراءته وفهمه وهي التي تجد جذورها في علوم الدين كما بلورها وحددها

السيوطي والزركشي في كتابيهما الاتقان والبرهان، والتي تظهر بالخصوص في المعرفة بمختلف الخصائص المتعلقة بالسور والآيات والتي سنحاول إجمالها في بعض العناصر منها معرفة أسباب النزول التي تعتبر عند الزركشي طريقاً قوياً في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحثف بالقضايا (الزركشي، ب، 2005: 46) ويعني سبب النزول ما نزلت الآية أو الآيات أيام وقوعه متضمنة له أو مبينة لحكمه (فضل، ح ع، 2007: 131)، إضافة إلى ذلك ينطلق علم القرآن من المعرفة بأوقات وأمكنة النزول الليل أو النهار، الصيف أو الشتاء، الفراش والنوم أم غير ذلك، وأول ما نزل وآخر ما نزل، وما تكرر نزوله، وكيفية إنزاله، وأسماءه، وعدد سوره وآياته، ومعرفة المناسبة أو العلاقات والروابط بين السور مع بعضها البعض، وبين الآيات داخل السورة الواحدة، ومعرفة المكي والمدني وتعني معرفة بما نزل بمكة وما نزل في المدينة، وأشهر الاصطلاحات الواردة في هذا المجال حسب السيوطي هي تلك التي ترى أن المكي نزل قبل الهجرة، والمدني نزل بعدها، سواء أكان بمكة أم بالمدينة، عام الفتح أو عام حجة الوداع، أم بسفر من الأسفار (السيوطي، ع، 2005: 32)، ومعرفة الناسخ والمنسوخ التي يعلم بها تقدم وتأخر الأحكام والآيات المتعلقة بها، وأنها أصبحت ملزمة وأنها تقرأ وترتل ولا يعمل بها، كما يعني النسخ رفع الحكم الشرعي بديل شرعي متأخر، فالحكم المرفوع يسمى: المنسوخ، والدليل الرافع يسمى الناسخ، ويسمى الرفع: النسخ (العبيدي، خ ف، 2007: 170)، ومعرفة المحكم الذي يكون واضح الدلالة لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً من المتشابه الذي يتعلق بما التبس واستأثر الله بعلمه واحتمل أوجهها متعددة من الدلالة .

هذه بعض علوم القرآن الأساسية التي اعتمد عليها علماء الدين ماضياً وحاضراً التي كانت منطلقاً لهم في منهج القراءة الجوهري لديهم وهو التفسير والذي يعني في الأصل اللغوي الكشف والإظهار، وفي الشرع توضيح معنى الآية، وشأنها، وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة (الجرجاني، ش، 2006: 60) والذي يعتمد على المعرفة بجملة العلوم السابقة الذكر والتي يمكن أن نضيف إليها المعرفة بقواعده المختلفة ولاسيما قواعد اللغة المتعلقة بالإعراب والضمائر، والتذكير والتأنيث، والتعريف والتكثير، والإفراد والجمع، والمصدر والعطف، والبيان والبديع وغير ذلك من أسرار البلاغة وعلوم النحو والصرف، ويرى الزركشي أن التفسير باعتباره بحثاً في المعاني العبارات التي يعبر بها عن الأشياء يقترب مع كل من المعنى والتأويل، ويحدد جملة المفاهيم المرتبطة بالمصطلحات الثلاث من الناحية اللغوية والاصطلاحية، نشير إلى البعض منها، وهي: المعنى وهو القصد والمراد، والتفسير في اللغة يعني الإظهار والكشف مشتق من التفسر وهي القليل من الماء الذي ينظر فيه الأطباء، ويمثل عند العلماء كشف معاني القرآن وفق مطابقتها للظاهر، كما يعني في الاصطلاح علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها،

والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيبها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملاها ومفسرها، والتأويل أصله من الأول والمأل وهو العاقبة والمصير، ويعني صرف الآية إلى ما تحمله من المعاني و كشف ما انغلق من المعنى (الزركشي، ب، 2005: 142- 143- 144)، ولكن الزركشي كغيره من علماء القرآن يركز على التفسير لأنه القاعدة الجوهرية عند علماء الدين في قراءة النص القرآني بينما يعتبر التأويل من قبيل الدراية والاستنباط يمكن ان يعتبر فرعاً فقط حسب حاجة النص إليه فقط، و من الأولى الاعتماد على التفسير لأن من ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير بالظاهر، فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب (الزركشي، ب، 2005: 171) بهذا الحكم الذي يتبناه أغلب الفقهاء في نمط القراءة الملحقة بالآيات والسور ندرك أن التفسير وفق علوم الدين السالفة الذكر والتحكم في مبادئ اللغة العربية هو الأساس في فهم معانيها وكشف مدلولاتها.

كما أن القراءة المنتهجة عند علماء الدين تجعل غايتها الأولية هي الفهم والتحديد للأحكام الواردة في القرآن وهي ما تمثل الفقه وهو استخراج الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية كالواجب والمندوب و المكروه وغير ذلك، والفقه بدوره يعتمد على ما يسمى ما يعرف بأصول الفقه التي كانت أرغانونا خاصا بالمسلمين في قراءة النصوص أوجد أصوله الشافعي ويعني بالقواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة أما موضوعه : الدليل السمعي من حيث يوصل العلم بأحواله إلى قدره إثبات الأحكام لأفعال المكلفين ، والموضوع بالفعل في قضاياها أنواع الدليل وأعراضه وأنواع تلك الأعراض (الخضري، م، 2008: 12) انطلاقاً من هذا التعريف ندرك أن أصول الفقه هو الآلية الأساسية لقراءة ما ورد في القرآن عند رجال الدين، وبالتالي فآليات القراءة عندهم تقوم على المعرفة بعلوم القرآن والتحكم في منهج التفسير، والمعرفة بعلم الفقه وأصوله.

أما الفلاسفة فيعتمدون على آليات خاصة في قراءة النص القرآني تنطق من الثورة على نمط القراءة التقليدي الذي حددناه سابقاً، إذ تقوم على في جوهرها على أولوية العقل النص، وتعتمد على استثمار التطورات الحاصلة في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية في قراءة النص القرآني بعيداً عن أسوار القداسة وجملّة العوائق المختلفة المحاطة به مهما كان نوعها ذو طابع سياسي أو اجتماعي أو غير ذلك.

ويمكن الحديث عن حقيقة القراءة التي يقدمها الفلاسفة للنص القرآني بالعودة إلى الفكر الإسلامي الكلاسيكي الذي قدم الكثير من المساهمات في ميدانها لا يزال بعض الباحثين يشيد بها مثل إشادة أركون بالمعتزلة، ويعتمد على آلياتها في حلة معاصرة كما هو الحال في التأويل عند أبو زيد، فمنذ الفترة الأولى للفكر الإسلامي حاول المتكلمون طرح مختلف القضايا التي تدرج في ما يسمى بالمنوع التفكير فيه بلغة أركون، كما يظهر عند المعتزلة في مسألة خلق القرآن ،

وفي فلسفة ابن رشد التي قامت على ضرورة التأمل في المصنوعات وإدراك دلالتها على الصانع، وفي دعوة عند ابن عربي إلى إدراك فكرة وحدة الوجود التي تعتبر جوهر فلسفته، هذه بعض المسائل الأساسية التي كانت منطلقاً لظهور آليات خاصة للقراءة عند فلاسفتنا الأوائل وأهمها التأويل واكتشاف المجاز الذي كان السند الأساسي للمعتزلة في التعامل مع النصوص القرآنية التي لا تعرف دلالتها إلا بعد تقدم المعرفة العقلية بالتوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي العلم بالأصول الخمسة هو المنطلق لكل قراءة وفهم لها، وفي نفس هذا الاتجاه يلج ابن رشد على أهمية التأويل الذي يقوم على استخراج الدلالات المجازية وفق ما يسميه بالاعتبار وهو استنباط المجهول من المعلوم وعن طريق القياس البرهاني الذي يعتبر أقوى الأقيسة وأوثقها وأيقنها بالمقارنة مع قياس الفقيه الذي اعتبره قياساً ظنياً، أما ابن عربي فمتهجه يقوم على نمط آخر من التأويل وهو ذلك الذي ينطلق من التجربة الصوفية ويتجاوز تحديد المعنى الظاهري للنص، هذه بعض النماذج من القراءات الكلاسيكية تبين اختلاف منطلقات القراءة للآيات بين الفلاسفة الذين ركزوا على مسائل العقيدة وميتافيزيقا الدين الإسلامي وفق آليات التأويل واكتشاف المجاز واعتماد المنطق، وبين الفقهاء الذين ركزوا على مسائل الشريعة وقضايا الواقع، والاهتمام بالتفسير.

أما في الفترة المعاصرة عرفت إشكالية القراءة طرحاً واسعاً وأصبحت من أكثر المسائل إثارة في الفكر العربي والإسلامي الراهن، وذلك نظراً لحاجتنا الملحة إلى انتهاج قراءة محددة ولاسيما للنصوص القرآنية من شأنها أن تكشف الكثير من خباياها وأسرارها التي كانت ولا تزال تصنع حياتنا بحلولها ومرها، ومن الذي طرحوا مسألة القراءة في مفهومها العام المفكر اللبناني علي حرب الذي سعى إلى إبطال الاعتقاد بوجود قراءة واحدة مشتركة تكشف ما تبديه السطور وهم وزيف، ومما لاشك فيه أن الزعم بوجود قراءة واحدة صحيحة هو أكثر الأحكام انطباقاً على النص القرآني، وأقواها تأثيراً في رفض القراءات الجديدة، فقد حاول علي حرب الفوص في أعماق إشكالية القراءة لكي يفند مزاعم، ويبطل آراء، ويؤسس لأفكار جديدة حول مسألة القراءة التي تعتبر من الانشغالات الكبرى لحضارة تعتمد على النص، وتشغل قراءة النصوص فيها فضاء واسعاً في بناء واقعها السياسي والاجتماعي والثقافي.

فما يدعونا إليه المفكر العربي علي حرب بصدد طرحه لمسألة القراءة هو إدراك حقيقة القراءات السائدة وعدم جدواها في استلهاً النصوص، وإدراك الملامح الكبرى للقراءة الجديدة التي يدعو إليها من أجل اكتشاف المعاني الحقيقية والعميقة للنصوص ولاسيما القرآنية منها التي مازالت طاقة كامنة لم تستغل بعد في التعامل مع الواقع الجديد بصورة أكثر فاعلية من شأنها أن تخرجنا من الركود الثقافي والتخلف الحضاري.

ففي الوقت الذي أصبح فيه الفكر الأجنبي اليوم يشغل على نصوص كبار الفلاسفة وحتى نصوص القرآن لاستثمارها في التعامل مع الواقع والمستجدات وبناء حضارته وتطوير ثقافته، مازلت مسألة الاعتناء بإشكالية القراءة للنص ولاسيما القرآني عندنا لم تحظ بمكانتها المناسبة، وهو ما يحتم علينا نحن أن نكون أولى بذلك نظرا للمكانة التي يحتلها النص وبالخصوص الديني في ثقافتنا، ولا يتسنى تحقيق ذلك إلا بقراءة فعالة للنصوص تساهم في كشف جوانبها الخفية مهما كانت ذات طابع سلبي أو إيجابي، فإن كانت الأولى تتجاوزها، وإن كانت الثانية تقتدي بها ونحذو حذو ما تقول به، فمسألة القراءة المناسبة للنص من القضايا الجوهرية التي يستحق فيلسوفنا كل الشاء في طرحها رغم أنه تطرح الكثير من الإشكاليات ولاسيما في النصوص الدينية الممثلة في الآيات والأحاديث بالنسبة لنا كمسلمين، حيث يرى أن القراءة الحقيقية هي التي لا تقتصر على المعنى الظاهري بل تراعي عمق المعاني الخفية الواردة فيها وجانبها الباطني الذي يمثل المعنى الذي ينكشف للخاصة الذين لا يأخذونه على ظاهره بل يتأولونه، وهو ما ترتب عنه احتياج النص القرآني للتأويل الذي هو تجاوز الظاهر على الباطن، والخروج من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية (حرب ع، 2005: 12)، في نفس هذا الاتجاه يؤكد أبو زيد إلى أن معضلة النص هي احتكار قراءة من القراءات لعقول الناس اعتقاداً منهم أن الحقيقة هي ما قالوه.

كما يشير الكثير من الفلاسفة من أمثال ابن نبي وأركون بصدد قراءة النص القرآني إلى مسألة أخرى وهي تحديد قوام القراءة كما كان سائداً ومازال عند الكثير من التيارات التي تحصرها في الكفاءة والجدارة عند القارئ بالتحكم في اللغة وغيرها، فعلاً مازلنا نشاهد اليوم رغم التطور العلمي الحاصل وجود الاعتقاد ليس عند الناس فقط بل حتى عند النخبة أن من يفهم معاني النصوص ويجب الخضوع له، وقبول تفسيراته هو من يملك من الإمكانيات اللغوية ويتحكم في قواعد النحو والصرف والفصاحة، فقد نبه الكثير من المفكرين المعاصرين إلى هذه المسألة على غرار علي حرب منهم مالك بن نبي الذي رأى في كتابه الظاهرة القرآنية على مراعاة أسباب جديدة تتجاوز النظرة الكلاسيكية القائمة على الدراسة اللغوية والأسلوبية التي كانت سائدة في التفسير القديم وللأسف ما تزال تسيطر على الفكر الراهن، فحسب الفيلسوف الجزائري لأبد أن "يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي" (ابن نبي، م 1981، 59) وذلك حسب الثقافة السائدة اليوم التي لم تعد اللغة العربية كما كانت سائدة في المجتمع الجاهلي بل اللغة الدارجة التي الواقع يشهد سيطرتها على أفكارنا وبالتالي فالكفاءة اللغوية ليس معياراً لفهم النصوص، كما ينتقد أركون في هذا الصدد الطريقة التي يتعامل بها الفكر الأصولي السلفي في قراءة النصوص القرآنية وذلك حين يؤسس لفهمها وتفسيرها بالسيطرة على النحو العربي وعلم المفردات

والبلاغة وعلم المعنى أي مختلف العلوم الخاصة باللغة العربية (أركون م، 1996: 24) ، هذا المطلب الملح في قراءة النصوص الدينية هو الذي نبه عليه علي حرب كذلك بصدد نقده للموقف القائل بالتحكم في اللغة كميّار لإدراك الحقائق بعيدا عن اعتماد التحليل العلمي بالاستعانة بمعطيات العلوم الطبيعية والإنسانية في قراءة النصوص ، وهو من القضايا التي يجب إدراكها اليوم نظرا لأهميتها في صناعة الثقافة العربية اليوم .

بل الأدهى والأمر من مسألة اللغة أن هناك معيارا لفهم النصوص يتبلور في أذهان شريحة كبيرة من المجتمع، وهو ربط الفهم بمن يحفظ النصوص عن ظهر قلب ويقرأها كحافظ القرآن كثيرا يكون في مجتمعنا وكبلا على النص ومفسرا له رغم أنه لا يجيد سوى قراءته الحرفية ولا يمكن أن يفهم حتى أفكاره الظاهرة، ناهيك عن معانيها العميقة ، و معانيها المتحجبة ، فكثيرا ما كان القارئ من هذا النوع وصيا وحيدا على النص مبجلا مقدسا ، وعلى الكل أن يخضع لما يقول لأنه هو الصواب وكل من يعارضه حكمه الضلال والزيغ، فما أحوجنا إلى القراءات الجديدة للنصوص التي يدعو إليها المفكرين المعاصرين من أمثال أركون وأبو زيد وعلي حرب ، وأنا هنا إذ أنطلق من المجتمع إنما أحاول أن أبين أهمية ما يدعوا إليه هؤلاء بناء فلسفة هادفة إلى حل مشاكلنا من خلال دعوته إلى تجاوز القراءة التبجيلية للنصوص وقد ركزت على الدينية منها نظرا لعلاقتها الوطيدة بواقعنا .

ويمكن أن نلخص وسائل القراءة عند الفلاسفة في جملة من الآليات ، وأهمها التأويل ولكن ليس بمفهومه الكلاسيكي وان كان غير منفصل عنه، بل بمفهوم جديد يسعى إلى الغوص في أعماق النصوص واكتشاف دلالاتها الخفية بآليات أكثر اتساعا تنطلق من مفهوم جديد للوحي يحطم كل هالات القداسة المحاطة به كما هو الحال عند أبو زيد الذي اعتبره ظاهرة ثقافية يترتب عنها إمكانية قراءة النص القرآني كظاهرة ثقافية يفهم في إطار الأسس الثقافية للمجتمع الإسلامي كالنصوص الشعرية ومظاهر المجتمع وطقوسه التي جاءت الآيات معبرة عنها، وفي نفس هذا الاتجاه يدعوا أركون إلى الثورة على القراءات التقليدية وتأسيس نمط جديدة من القراءة يقوم على العودة إلى التاريخ الأول لتشكيل النصوص من جهة، والاستفادة من المناهج المعاصرة في ميادين العلوم الاجتماعية والإنسانية من جهة أخرى، إذ يدعوا إلى تطبيق نماذج وأنواع من التحليل للقراءة الأعمق والأصح عنده وهي التحليل الألسني، والتحليل السيميائي الدلالي، والتحليل التاريخي، والتحليل الأنثروبولوجي، والتحليل الفلسفي، وذلك بهدف فسخ المجال لفكر تأويلي جديد للظاهرة الدينية من دون عزلها عن الظواهر المشكلة للواقع الاجتماعي والتاريخي الكلي (أركون، م، 2005: 70) حيث يؤكد على أهمية ما يسمى بالتفكيك الذي يدافع عنه على حرب كذلك ويرى أنه أقوى آليات الفهم

والقراءة للنصوص يمثل اشتغالا على بنية النص وتحليل لفاعليته للكشف عن آلياته في إنتاج المعنى أو إجراءاته في إقرار الحقائق (حرب، ع، 2005: 54)، ويمكن القول باختصار أن جملة الآليات التي يدعوا إليها الفلاسفة تقوم على النقد للنظرة الكلاسيكية التبجيلية للنصوص القرآنية واعتماد الرؤية العقلية المتحررة وفق مناهج التأويل والتفكيك وفق رؤية أوسع وأشمل تسعى على الاستفادة من جميع معطيات التقدم العلمي في ميادينه المختلفة ولاسيما في العلوم الاجتماعية والإنسانية التي لا تزال تسير بخطى بطيئة جدا في مجتمعاتنا رغم حاجتنا الماسة إلى استثمارها في فهم ماضيها الذي يصنع حاضرها ولاسيما في مجال قراءة النصوص القرآنية التي لا تزال أسيرة لرؤية ضيقة محدودة جدا لا تتكرر لمستجدات الواقع فحسب بل تهمش نطاقا واسعا من التراث في مجال التعامل مع النص القرآني وهو مجموع القراءات الفلسفية التي تبلورت عبر التاريخ والتي هي الأساس لفك المكبوت والمقموع الذي يصنع اللاشعوري في مجال التعامل مع التراث والذي لا يزال في حاجة ملحة إلى قراءاته باعتباره كان ولا زال يؤثر اليوم في بناء سلوكياتنا وأفكارنا وكل ميادين حياتنا، و يبقى العلاج الوحيد لمعضلة تخلفنا في استكشافه وقراءته قراءة واعية فعالة.

من خلال طرحنا لإشكالية القراءة في مجال النص القرآني، ندرك أنها من أكثر المسائل إلحاحا للطرح والمعالجة ولا نكون مباغين إن قلنا هي المهمة القصوى للفيلسوف العربي الفعال والمتفاعل مع قضايا وطنه وأمته، يجب اكتشافها وتحليلها من أجل فهم وعلاج مشاكل المجتمع الإسلامي اليوم باعتباره أن حضارته في مجملها تتأسس على النص، وأزمته تكمن في عدم جدوى القراءات المقدمة لهذا النص المؤسس لها، إن لم نقل خطورتها من خلال ما تقدمه من قراءات تبتعد عن الفعالية وتترك المجال لجانبها الساذج المنتشر عند العامة والجماهير التأثير وصناعة الوقائع، وذلك لأن القراءات التي يعتقد أنها كفيلة بفهم النصوص القرآنية وهي تلك التي يقدمها الفقهاء وعلماء الدين قد لا تجدي نفعا مادامت متكررة لمستجدات الواقع ومراعاتها من جهة، ومتجاهلة في نفس الوقت للتطور الحاصل في الميدان العلمي والفكري الذي لا يمكن الخوف منه مادام هدفنا من مواكبته هو بلوغ الحقيقة التي هي المضمون العام للنصوص القرآنية، والغاية الكبرى للفلسفة التي كانت ولا تزال هي توفير الآلية الأنسب لتحقيق قراءة فعالة لها تلك التي لم تبلغها العلوم الدينية لوحدها ما دام هدف أصحابها هو احتكار الحقيقة وسجنها داخل أسوار المقدس الذي يظل من هذا المنطلق بعيدا عن الواقع، وهو ما يترتب عنه شرخا عميقا بين النصوص والوقائع لا يظهر في المجتمع فحسب بل في ذواتنا وأفكارنا، وبالتالي لا مناص من بلوغ قراءة حقيقة للنصوص القرآنية إلا بالالتحام بين علوم الدين من فقه وأصول وتحكم في منهج التفسير، ومعطيات وآليات التفكير الفلسفي من مناهج

كالتأويل والتفكيك ومختلف منجزات العلوم الإنسانية والاجتماعية من أجل تحقيق الهدف الأسمى للرسالة القرآنية وهو بلوغ قراءة شاملة من شأنها أن تبلغ للناس كافة.

أهم المصادر والمراجع والمعاجم:

- أبو زيد نصر حامد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، ط 6، 2005.
- التونجي محمد، المعجم المفصل في الأدب ج 2، دار الكتب العلمية ط 1: 1993.
- الجرجاني شريف، التعريفات، دار البيضاء، ط 1، 2006.
- السيوطي جلال الدين ابن عبد الرحمن بن أبي بكر، الإقتان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، 2005 .
- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار الفكر، 2005.
- أركون محمد، تاريخية الفكر الإسلامي، المركز الثقافي العربي ط 2: 1996.
- أركون محمد، القرآن من تفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني - دار الطليعة "ط 2: 2005.
- حرب علي، الممنوع والممتع، المركز الثقافي العربي، ط 4، 2005.
- حرب علي، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، ط 3، 2005.
- شبانة حسن بن محمد، العقيدة بين السلف والمتكلمين، دار الإيمان، 2004.